حسين مردان .. قاصاً وناقداً

أ . م . د عبد الله حبيب كاظم
عزيز لطيف ناهي
جامعة القادسية ـ كلية التربية
الباحث

تناول هذا البحث ، الأديب حسين مردان على غير ما عُرِفَ عنه ، واشتهر به من كونه شاعراً ومقالياً ، فحسب وإنّما هو قاص شارك قصَّاصي جيله في كتابة القصة القصيرة في منتصف القرن الماضي ، إذ تناولت قصصه من الموضوعات المتنوعة والتي أشارت إلى مختلف الأبعاد الفنية على وفق رؤية واعية لما تكتب وتحلل ، وهي في ذلك غنية في معالجاتها ، وطرحها في تنّوعها وفي موافقة تشكيلاتها الصورية ، وتحرك شخوصها داخل القصة ، ونجاح حسين مردان في طرق معالجة الحدث فيها وإنْ لم يغب من قصصه صدى ((العبارات)) ذات الدلالة الجنسية في معالجة الأحداث ، وقد يلجأ في بعض الأحيان إلى إستعمال الكلمات العامية للتعبير عن واقع بعض شخصياته داخل القصة ؛ فضلاً عن كون حسين مردان كان ناقداً للقصة بشكل لافت للنظر ، حتى عُدَّ (مُنظّراً) لفن القصة ، وقد ساعده في ذلك سعة إط لاعه أثناء عمله الصحفي ، وقد أشاد النقاد ببراعة حسين مردان القصصية والنقدية مما استلزم على الباحثين العناية بهذا الجانب الإبداعي عنده والتركيز عليه

This search is dealing with the writer Hussain Mardan not just as a poet and an article writer but also story writer and critic. He participated with the writers of his time in writing and criticism the short story.
In his stories, he took in consideration variant headlines according to clever vision to what writes, analyze and gets into unfamiliar end as it was known from Hussain Mardan. His stories were rich of variety and keen of images forms and events and also included statements and images of sexual revelation used in dealing with the story events.
The Mardanian stories attracted the critics attention even they did not reach the decent importance comparing with other story writers. The Study and search refer strikingly that Hussain Mardan was a critic of novel and story, especially at the beginning of his age through his critical articles published in journals at his time, his readings and cultural sources helped him of that. His criticism for stories had attention of the critics too for theorizing story literature because he preceded the others of invention which gave the impulse to study his literature including the story and criticism.

القصة القصيرة عند حسين مردان

القصة : لون أدبي يضم حادثة واحدة أو عدداً من الحوادث التي تجري في بيئة من البيئات وتتعلق بأشخاص مختلفين ومتباينين في حياتهم وصفاتهم ووسائل عيشهم وتصاغ بإسلوب معين وترسم له نهاية معروفة [١] .

والقصة القصيرة ذات مناظر ثابتة لا تتغير ، وفكرة واحدة وهيكل غير معقد وفقرات لكلٍّ منها معنى خاص ، وإنّها تنتهي عند انتهاء الغاية التي رسمت لها نهاية منسجمة مع بدايتها ومع إهتمامها بالبيئة والعمل والأشخاص فإنّها تركّز على أحدهم وتجعله موضع الاهتمام [٢].

يذكر باسم عبد الحميد حمودي وهو يرسم أطوار القصة القصيرة في العراق بقوله (ونجد أنَّ أفضل طريقة لتحديد هذا التتابع أن نتلمس في الإحداث التي مرّت بالقطر تأثيرها الحاسم في تغير مجرى الثقافات والانتماءات الفكرية كطريق لهذا التحديد)[٣] والذي يعنينا منها هو الفترة الرابعة ا لتي يحددها من عام "١٩٥٢ . ١٩٥٦م" بقوله (لقد حملت هذه الفترة بصمات الرفض والمقاومة) أما المدة الخامسة التي يقول فيها (وتبدأ من حدث عظيم كتموز لتدخل الستينات مشدودة إلى تقاطع التيارات السياسية التقدمية بدلا من توازيها)[٤] .

ومصداق هذا القول ما ذهب إليه د . عبد الإله احمد بقوله (إنَّ الأدب القصصي في العراق لم يسر في كلِّ تاريخه الحديث على وتيرة متنامية من التطّور ، فنهوض يعقبه ركود ليعقبه نهوض آخر يعقبه خلال فترة قصيرة من تاريخه)[٥]. ولقد عرف حسين مردان عرف بوصفه شاعراً وناقداً ومقالياً بارعاً (لكن قلة قليلة من أدباء هذا الجيل تعرف حسين مردان مهتما بفن القصة والقصة القصيرة خاصة نقدا وإنشاء فقد كتب حسين القصة القصيرة في الموضوعات التي شاع تناولها في أقاصيص جيله وزاد عليها التفاته إلى التعبير القصصي عن المشاعر الذاتية أو الخلجات النفسية في تجربته الخاصة)[٦] يقول جمال مصطفى مردان : (كتب حسين مردان في بداية حياته الأدبية وعلى صفحات جريدتي الأهالي والأخبار مجموعة من القصص القصيرة ذات الطابع الإنساني بصورة عامة .....فقد كان عامل الضجر من الحياة هو الرابط المشترك في بعض هذه القصص ، وحمل البعض الآخر منها جوانب سيكولوجية شخصية بحتةٌ أساسها الواقع الإنساني إختلط فيها الوعظ بالزمن .... والزمن بالواقع)[٧].

ويشير عبد الجبار عباس إلى ميزة عند حسين مردان دون غيره في كتابة القصة هي مسألة التعبير عن المشاعر الذاتية والخلجات النفسية بقوله :(الأمر الذي كان يهرب منه معظم قصاصي الخمسينيات الواقعيين ، أو يحلونه محلا دون التعبير عن الموضوعات الاجتماعية وفق حسٍّ أخلاقيٍّ ملتزمٍ)[٨]. ثم يتابع قوله موضحا خطى مردان والطريق الذي سلكه في كتابة القصة قائلا (وإذا كان

حسين مردان قد شارك قصاصي ذلك الجيل انشغالهم بقضية الف رد المنسحق تحت وطأة شروط اجتماعية فادحة تقذف به إلى مهاوي الضياع وان لم تفقده حس التعاطف النبيل ،فقد جذبته طبيعته السيكولوجية المطبوعة على المرح والسخرية إلى كتابة هذا اللون المعروف من القصص الذي لم يكن يتسع له مناخ تلك المدة المتجهمة الكالحة ..... كما قاد ه الحرص على التوفيق بين المطالب الذاتية الغنائية أو قصة السيرة المتضمنة اهتماما خاصا قد لا نجده لدى كاتب عراقي من كتاب الجيل السابق)[٩]. هذا الإحساس كان ملازما له منذ البداية ويذكر ذلك عبد الجبار عباس أيضا بقوله :(لقد سبق لحسين أن عبر في " صور مرعبة " وبعض قصصه القصيرة عن ذلك الجدب الروحي الذي كان يفترس قلب المثقف الشاب في ليل حكم العمالة والإرهاب والتخلف حين يعود إلى الذات المطاردة المحبطة فلا يصطدم إلا بجدران الشلل والتعب النفسي حيث تنعكس على صفحة الذات الداخلية ظلال قاتمة من خواء الواقع الأسود ....ولكن الإحساس بالجدب مختلف هذه المرة . انه إحساس من انتهى إلى طريق مسدود)[١٠].

هذه الشخصية التي جذبت إهتمام الأدباء بما حوت من غرابة وطرافة كي يجعلوا منها شخصية فاعلة في رواياتهم هي النفس التي تأوهت لواقع شعبها (فالقصص الاجتماعية هي التي تتحدث عن قضايا المجتم ع وأدوائه وفضائله أمثال الأمية والفقر والجهل والأخوة ومشاكل الزواج ومنافعه وغيرها)[١١]. وقد ذكر جمال مصطفى مردان أسلوبه في كتابة القصة بما امتلك من مواهب متعددة قائلا (إنَّ أسلوب حسين مردان القصصي هو محاولة جادة لفهم الواقع ضمن الخمسينيا ت من هذا القرن بلغ فيها الجهد الواضح في وضع خيط أو عقدة كأساس لكتابة القصة وبالتالي استخدام الأسلوب السهل الممتنع لتبيان واقع وتصرفات شخوص هذه القصص .... كما إنَّ إبتعاده عن الأسلوب الخطابي إلى الأسلوب الممتزج بين " الأنا " كشخص أساسي ورئيس في محور القصة وبين " الهو " في تفسرير كوامن النفس المشروطة يتحرك شخوصها كما إستخدم التداعي الحر لفهم بعض التعابير الهادئة ولوصف النوازع البشرية بصدق واضح ، وان التشويق الأساسي الذي استخدمه مردان هو المفاهيم الجنسية المنسقة ضمن السياق للقصة وبالتالي كان مردان في تناولها نماذج إنسانية واقعية لها أحاسيس الإنسان العادي الممتزج بين الذات البشرية وبين الواقع الذي يحرص على تصويره دائما بصورة بائسة ....)[١٢] .

ذكرنا فيما تقدّم عدم معرفة الكثير من الأدباء بامكانية حسين مردان في الكتابة بمجال القصة حيث يدافع عنه عبد الجبار عباس وعن مكانته القصصية قائ لا (لم تكن القصة عند حسين مردان نشاطاً ثانوياً طارئاً يلي الشعر أو المقالة أهمية ومرتبة بل كان يمنح القصة ما يمنح الشعر من

الاهتمام والاحتشاد ، وإنّ لم تشهد سنواته الاخيرة ما شهده شبابه من إنصراف إلى كتابتها .... ومع ذلك فانَّ أقاصيصه ليست أدباً باهتاً أو عادياً لا يحفل به سوى مؤرخ الأدب المدقق ، بل كانت تقف على صعيد واحد مع اغلب أقاصيص أواسط الخمسينات العراقية مستوىً وجودة وحرصاً على تحقيق الشروط الفنية التي لا تكون القصة بدونها عملا إبداعيا متنبها إلى خصائصه ومزاياه)[١٣] . وينوه إلى دور الصحبة والصداقة الـتي انعقدت بينه وبين الآخرين من أعلام القصة العراقية بقوله :(وقد أتاحت له رفقة أعلام القصة العراقية آنذاك إن يكون قريبا من القصة نصوصا وتراثا ووعياً فشاركهم الإيمان بضرورة تجاوز مفهوم الحكاية القائمة على السرد الباهت العظيم ونبذ هذا اللون السهل من الأدب الـدخيل على القصة والذي مهدت لظهوره أبواب الصحافة اليومية ورسخه غياب الوعي القصصي : أدب الخواطر والعصور)[١٤].

إن شاعرية حسين مردان لم تفارقه كما لاحظنا ذلك فهي موجودة في اغلب مقالاته كذلك نجدها في قصصه (إذ أنَّ القصة عنده كالقصيدة : دورة حول موقف عاطفي أو مو ضوع اجتماعي أو فكرة معينة لكنها نشاط آخر في مجال مختلف لا يكاد يؤثر تأثيرا واضحا في شعره مما يجعل التأثير القصصي ضعيفا في شعر حسين مردان)[١٥] هذا ما يتعلق بالشعر وعلاقته بالطابع القصصي أما في الجانب المقالي عند حسين مردان بصورة خاصة نجد طابعا قصصيا (إذ تعد القصة أو القصة القصيرة اقرب الأجناس الأدبية إلى المقالة)[١٦]. مما يجعل هذا التداخل واضحا بشكل لا يمكن غض الطرف عنه في قصصه (إذ نجد تداخل أسلوب السرد الذاتي باستخدام ضمير المتكلم في مقالات حسين مردان "القصصية " وعلى سبيل المثال قصة "دوران المراوح "[١٧] الـتي تصّور العودة الليلية لحسين مردان ، إذ يستخدم هذا الأسلوب في السرد لانَّ الراوي هو الكاتب نفسه لطالما استعارت المقالة أسلوب السرد الذاتي لتوظيفه في البناء المقالي مما أكسب القصة صفه سردية قصصية)[١٨] ويعلقّ على هذه القصة عبد الجبار عباس قائلا (في قصة الضحكة والحذاء) التي كان حسين يدرك جدتها المبكرة حين دفعها للنشر في إحدى المجلات على أنها "قصة سيكون لها دويّ .... فهي قصة من نوع جديد " لكن وعي المحرر التقليدي عدها "كلمة ..... ننشرها وذنبه على جنبه كما يقولون " . إن مطلع القصة ذاته يوحي بهذا النسق السيكولوج ي المتحرر الذي بنيت عليه :(كنت آخر من غادر الحانة وكنت أحس إنَّ ألف مروحة تدور في رأسي ..) وتتم النقلات بوساطة عبارة : (وعادت المراوح تدور في رأسي من جديد) وتبقى للقصة برغم الحرية الظاهرية دورتها الداخلية المنتهية إلى قرار أخير تهدأ بعده المراوح)[١٩] كذلك استخدم مردان أسلوبا آخر من أساليب السرد القصصي هو أسلوب تيار الوعي (وهو نوع من القصص يركز فيه أساسا على ارتباط

مستويات ما قبل الكلام من الوعي بهدف الكشف عن الكيان النفسي للشخصيات)[٢٠] هذا الأسلوب استخدمه في قصة "الشيء الذي لا يوجد"[٢١] وهي قصة ذاتية لها مغزى فلسفي اعتمد الكاتب فيها على المونولوج الداخلي وهو (تكنيك مستخدم في القصص بغية تقديم المحتوى النفسي للشخصية والعمليات النفسية لديها)[٢٢] . إذ يقول فيها (منذ الصباح وأنا أتجول في قلبي بحثا عن ذكرى أو شبح عن رجفة حارة أو لوعة لا شيء غير قالب من ج ليد وظل غزالة تبتعد وتغيب في عتمة الأعماق وكلما أرسلت كفي ليحفر في داخلي ويمسك بعطر أغنية أو لمعة ضوء عاد وقد امتلأ بالغبار والطين فإلى أين ذهبت تلك الوجوه والمناظر والكؤوس المترعة وأين اختفت غابات الريحان والطيور وجداول الضحك ويواصل حسين مردان إبتكاره في استخدام أساليب جديدة في قصصه وهذا ما نجده في قصة "وحدي في القفص "[٢٣] . إذ يستخدم "الوصف" الذي يصور فيه صباح يوم جديد في حياة الكاتب ويمازج حسين مردان فيها بين التصوير ووصف ما حوله من أحداث تجري خلال اليوم بأجواء قصصية عبر سرد الأحداث والمداخلات اليومية وتت بنى عواطف محمد الحسناوي هذا النوع من الوصف الذي يسميه د . شجاع العاني بـ "الوصف التوثيقي"[٢٤] إذ يوصف من خلال البيئة التي حوله حتى يصل إلى كشف مزاجه وحالته النفسية من خلال مقالته الذاتية التي تعبر عن حالة الملل التي يعيشها الكاتب لذا فانَّ الوصف أسهم في بناء " المقالة " القصة ")[٢٥] .

ويعلق على هذه القصة عبد الجبار عباس قائلا (ما نلاحظه في قصة " وحدي في القفص " فهي تصوير لمفردات حياة يومية خاوية المعنى والهدف يفترسها الضجر وتترابط فيها الجزيئات عبر نسق سيكولوج ي فهي تشبه قصة " دوران المراوح " : تلك تصوير للعودة الليلية الكئيبة ، وهذا تصوير بالإسلوب ذاته ليقظة صباح من الحياة نفسها إنهما وجها عملة واحدة يستحيل فيها الصدأ عبر قلم قصصي رشيق إلى أدب طلي يحفل بمسحة من حزن هادئ تشوبه سخرية رقيقة هي ثمرة الشعور بإحباط شامل يضيع فيه العمر ويمسي اليوم " خطوة جديدة نحو الموت")[٢٦].

ويتواصل عبد الجبار عباس في الثناء على هذه القصة (وحدي في القفص) والتركيز على أوجه الشبه بينها وبين القصص القصيرة الحديثة (إن شبها لا يخفى يقوم بين هذه القصة وبين القصة القصيرة الحديثة في تنكرها لوحدة الحدث المتطور أو الحكاية المترابطة و التفاتها إلى رصد جزيئات أو لمحات كأنها ذرات تتماوج في دائرة يتداخل فيها الضوء والظل على إن هذا الشبه لا يعني أن حسينا يحاكي هذا اللون من القصص الجديد فقد شُغل في سنيه الاخيره بقراءة الراويا ت العالمية المترجمة عن متابعة القصص القصيرة الجديدة)[٢٧]

يستخدم حسين مردان القصة النفسية الذاتية التي يشير الى وجودها عبد الجبار عباس من أنّها كانت موجودة منذ وقت مبكر عنده فقد (كتب تحت عنوان "من ذكريات الطفولة "[٢٨] قصة "جديدة الشط " التي يصف فيها حنينه العاصف إلى طفولته وقريته وحزنه لمرور الزمن . إنَّ نهر الذكريات يسيل و المقارنة الشجية بين غفلة الطفولة اللاهية ومسؤولية الشباب المحبط تتعقد في عذوبة آسرة ومن هذا اللون مقالته القصصية المبكرة " باريس نهر الورور " يروي فيها أول رحلة قام بها في صباه مع صديقه للطواف حول العالم تحقيقا لحلمه الدائم بالرحيل لكن الرحلة التي أملاها " جنون مخيف للانطلاق و التشرد " انتهت عند نهر الورور لحظة ميلادها ، وقد كان هذا الأداء القصصي الذي يلتقي فيه الوصف بالتحليل بالتداعي أداة مسعفة للتعبير القصصي عن تجربة الحب الصامت الفاشل)[٢٩].

يشير جمال مصطفى مردان إلى وجود القصة النفسية في قصة " المدمن "[٣٠] قائلا : (ففي قصة مثل " المدمن " تميزا لها صورة واقعية " آنذاك " لتداعيات رجل مثقف عاش في صراع مع نفسه ..... وبين " الأنا " في ذاته وبين ذاته نفسه ..... ويربط فيها واقع السكون والليل والضجر مع إنسان مؤمن بالعلم .....)[٣١] .

بينما نجد إن عبد ا لجبار عباس يعلق على قصة " المدمن " قائلا (إن عنوان القصة النفسية الذي تقدم به قصة مثل "المدمن" تميزا لها عن القصص الاجتماعية قد لا يكون وافيا بالغرض)[٣٢] وإنّما يدخلها ضمن القصص الاجتماعية قائلا (فهي مثل "وحدي في القفص " و "دوران المراوح" قصص اجتماعية بمعنى ما ، فهي مثل "وحدي تجربة اجتماعية من زاوية انعكاسها على الذات فالأزمة الفردية في أي من هذه القصص الثلاث تشي بما يماثلها لدى طائفة المثقفين المستنيرين . إنّها جهد قصصي لالتقاط قضية عامة منعكسة على صفحة الذات المحبطة ففي قصة "المدمن" تطالعنا لحظة نفسية ثريّة تفيض بصدق نادر : إنسان مثقف يتخبّط في (هذا الاقيانوس من الموج الأسود هذا التيه من الصمت) ويفكر بمستقبل البشرية بعد ألف عام ... إن حسين مردان في " دوران المراوح . المدمن . وحدي في القفص " قصاص متمكن ومجدد لابد إن يذكر له تاريخ أدبنا اسهاماته في كتابة هذ ا اللون المنسي لكن المهم من قصص الخمسينات العراقية أنها قصص تمنحنا "متعة الهيمان التي لا تعوض في الحكاية المتسلسلة"[٣٣])[٣٤].

إن حالة الحزن والضجر هي من السمات البارزة في شخصية قصة " رجل يكره المدن له هواية "[٣٥] . إذ يعلق عليها جمال مصطفى مردان قائلا (إن الضجر يعد الشخصية الأساسية في قصة " رجل يكره المدن له هواية " وهي قصة رجل اضطره العجز لكي يذهب لتربية الحمام ....

وظل واقفا فوق السطح مراقبا تحرك الحمام استقرت نظراته على رجل كهل وأمرأة شابة ..... وحملت الريح إلى إذنيه تأوهات المرأة المبتهجة)[٣٦] بينما يعلق عبد الجبار عباس على هذه القصة مستعرضا لها (نرى السيد عبود رجلاً ضاق بصخب المدينة فقرر أنْ يعمل المستحيل لينقذ نفسه من هذا الجحيم ظل ينقش العرائض طالبا نقله دون جدوى فأضطر إلى استئجار عرصة وقفية وكانت زوجته تعرف الهدف من شراء الأرض فلم تدخل معه في مناق شات أخر .....) ثم يبدي رأيه فيها (سخرية لطيفة في عرض منسق ولغة معبرة وبناء مستقر يزينه تشويق ذكي في قوله : (كانت زوجته تعرف الهدف .....) مما يدلَّ على خبرة بأسرار التشويق والصنعة القصصية ، وشخصية قصصية واضحة الملامح وجدت ذاتها ومحور حياتها في هواية وحيدة لا فضل ولا خيار في صياغة إيقاع الحياة من اجلها فقد جاءت بالوراثة)[٣٧] ثم يربط بين بطل هذه القصة وبين بطل قصة "طراز خاص"[٣٨] . قائلا (إنَّ بطل هذه القصة . الطرفة . يشبه بطل قصة "طراز خاص" السيد طالب : رجل ثلاثيني الذي بدأ يفقد صفاته الانسانية ويتحول إلى الة يتدحرج يوميا إلى نفس الرصيف منذ عشرات السنين وفي مقر عمله في المحكمة يقذف بجسمه الرفيع المتقن التوزيع على الكرسي وعلى شفتيه تلك الابتسامة التقليدية التي لا يسمح لها إن تعلو إلى عينيه مطلقا فلا يمكنك إن تفهم منها أي معنى فهو نفسه لا يعرف يدخن بقانون خاص لا يكسره إلا اجتماعه باصدقاءه لينغمس في المناقشات الادبية التي تتقلب أكثر الأيام إلى نوع من المهاترات عندئذ يضع علبة من سكائره على المنضدة ويدخن دون ان يحسب للزمن أي حساب)[٣٩] بعد أن استعرض القصة يعطي رأيه فيها قائلاً (تنتمي هذه القصة إلى باب " قصصه الشخصية " التي تجمع من الجزيئات واللقطات ما يتضافر على رسم صورة محددة لشخصية ما عبر دورة زمنية ..... إن السيد طالب شخصية ذات سمات كاريكاتورية .إنساناً عرفه حسين وعرفته أوساط الخمسينات الادبية فقد كانت تغص بالدخلاء والأدعياء من كل لون ..... فراح في قصته يسخر من الأدعياء ، من الانضباط الغبي الذي كانت حياة حسين ثورة عليه ويقدم . في غير ما حقد . نموذجا واضح السمات لهذه الفئة المتطابقة القانعة من الطبقة الوسطى ، اطمأنت إلى نفسها والى واقعها اطمئنان الجهل والخمول ، فهي مسمرة إلى ذات قانعة بخيلة إذ مهما يبدي السيد طالب م ن حاتمية فلا يمكن إلا أن تضعه مع البخلاء)[٤٠] . بينما يعلق جمال مصطفى مردان على هذه القصة "طراز خاص "[٤١] قائلا (كان الروتين القاسي الذي يعاني منه بطل القصة هو رجل شارع اختلطت عليه تداعيات الواقع)[٤٢] .

لم يغب عن مخيلة حسين مردان إستخدام المفاهيم الجنسي ة المنسقة ضمن السياق العام في قصصه وفقا للغاية التي ينشدها من خلال هذا المفهوم وفي ذلك يقول جمال مصطفى مردان معلقا

على قصة "الزوج الذي لا ينقص حبّه"[٤٣] "أما النار المتأججة في أحشاء بطل قصة" الزوج الذي لا ينقص حبه "فهو صراع الإنسان مع ذاته وبين الفضول الذي يدفع الرجل إلى خيانة زوجته مع خادمة عجوز وبعدها يعود إلى رشده ويتصّور ، بل ويؤمن بان تلك النار لم تكن سوى وضعا مؤقتا وانتهى إلى الأبد)[٤٤] إلا أنَّ عبد الجبار عباس يقول فيها (لم يكن أحب إلى حسين مردان من أن يصور اللحظة : لحظة استعارة الغريزة وتفجّر الشبق ، وما تصنعه بإنسان مهزوز كهذا الزوج الذي لا ينقص حبه ولا يزيد فقد كان تناولها في قصصه منسجما مع موضوعه المبكر الاثير الجنس ....)[٤٥] . وهذه الفكرة تستبد بالإنسان (فهو وحش ضار يدفع بطلي قصته " الشقي والنساء "[٤٦] إلى إن يتذوقا تجربة اللذة ، كل من زاويته لم تكن تعني لدى المرأة الجربة إلا لحظة حارة عابرة ، لكنها كانت هزة خطيرة في حياة الرجل)[٤٧] . ثم يضيف إلى ذلك النسق من التركيز على المفهوم الجنسي في قصة " افتح الباب " فكانت بطلتها سيدة برجوازية رضعت الشهوة من أخلا ق طبقتها المترفة .....إذ يعلق عليها عبد الجبار عباس قائلا (عبر اقتصاد في الحدث والسرد تتكشف به حقيقة الشخصية القصصية وعبر جمال النقلات المتناسبة في جو طبيعي لا اثر فيه للتكلف تتوجه ضربة ختام مفاجئة لذيذة كتب حسين مردان قصة " افتح الباب " ربما بإيحاء من مع رفته لعيون الأدب القصصي الذي عالج موضوعا متشابها)[٤٨] .

تتوسط هذه القصص قصة "كريستال يابائعة التذاكر "[٤٩] فيها من العذوبة العاطفية الكثير، إذ يعلق عليها عبد الجبار عباس قائلاً (وفي قصته اقتناص عذب لتلك ألازمة العاطفية الرومانتيكية : لقاء قصير مع بائعة تذاك ر ذات إشراق طفولي أثار الحزن والشوق والأمل والتأنيب المر في القلب الهرم حتى إذا ما حاول العاشق المتعب ان يبدأ شوطا آخر في اللعبة المنهكة وخيل إليه إن (هذه القطة المدربة) تبتسم له بطريقة خصوصية كانت ترقص مع شاب أهيف أملس الخدّين)[٥٠].

يذكر ياسين النصير (تلك المرأة في أدب وحياة حسين مردان أن تكون القاسم المشترك للكثير مما كتبه من .... وقصص قصيرة .... هي المثال الذي رافق سيرته الأدبية كلها وهي النموذج الذي يأنس لمحاورتهكلما اشتدت به الخطوب)[٥١]. وهذا ما نلاحظه في قصصه الاجتماعية إذ يعلق عليها عبد الجبار عبا س قائلا (أما قصصه الاجتماعية ، فأقل كتاباته القصصية شأناً في قيمتها الفنية ، أملاها التعاطف النبيل مع الجماهير المسحوقة التي ولد حسين مردان بين صفوفها وظلَّ وفياً لها ، وشجعه على كتابتها شيوع موجة كبيرة من القصص الواقعية العراقية امتدت على مدى تاريخ أدبنا الحديث ، ولحسين في هذه القصص دور المشاركة والمجاراة لاشرف الريادة والامتياز)[٥٢] ويأخذ عبد الجبار عباس نموذجين للقصة الاجتماعية عند حسين مردان الأولى قصة "

عودة البغي "[٥٣] . قائلا فيها (إن الإحساس بالشفقة هو الذي أملى عليه كتابة "عودة البغي " تلك القصة الساذجة في موضوعها وإحساسها فرغم أنها في لغتها وانطوائها على "مشكلة" تنسجم مع فهم حسين مردان للقصة فإنهّا تتنكر لذلك الفهم في غياب التوازن والتناسب بين أجزائها إذ يحتل المدخل الوصفي ثلثي القصة ..... في هذه القصة التي تبدو وكأنها قصتان ارتبطا معا بسببية ميكاني كية يكرر حسين مردان بطيبة قلب القصاص الواقعي الخمسيني موضوعاً يكاد يكون تقليديا لتوصيل هدف بعينه : أن يظهر ما في أعماق الفقراء من فضيلة رغم وحول الحياة وعسف الظروف ، سوى أن القارئ قد ألف أن ينبري رجل تحبه وتزوجته ، ففعل غسلا للعار ، ودخل السجن فضاعت منه جارته لكن حسينا يقلب الصورة للهدف ذاته فيجعل البغي هي التي تنقذ الرجل من الضياع الذي كان ينتظره)[٥٤].

والقصة الثانية هي قصة " الاغتسال بالدم "[٥٥] إذ يقول فيها عبد الجبار عباس (هي قصة وعظية هدفها الاصلاحي يفسد منطقها الفني الداخلي وصدقها الوثائقي معا فيحمل الادب على تبديل موقفه دون تمهيد أو صراع داخلي ، لذا اعتمدت شكلا ميكانيكيا ضاعف من افتعاله تكرار الازمة بجزئياتها واطرافها ، ان ما أراد الكاتب ان يكون توترا دراميا ليس إلا لقاءً مصطنعا بين مفهوم الحكاية والفهم البدائي الأول للقصة القصيرة : العقدة المتصاعدة إلى ذروة فانفراج .... إن" الاغتسال بالدم " شيء مما كان يصلح آنذاك للإعداد التمثيلي العامي وعودة غريبة إلى الحكاية التي رفض حسين مردان إن تعد قصة قصيرة)[٥٦] .

ويذكر جمال مصطفى مردان (كتب مردان قصص قصيرة منها " وحدي في القفص . دوران المراوح . جديدة ا لشط . باريس ونهر الورور . كريستا ل يابائعة التذاكر . المدمن . حكاية من نقطة الصفر . رجل يكره المدمن له هواية . طراز خاص . الزوج الذي لا ينقص حبه . الشقي والنساء . افتح الباب . عودة البغي . الاغتسال بالدم ..... الخ)[٥٧] ثم يقول : (ويبقى لقصص حسين مردان مواقف للأدب المعاصر في الخمسينات لابد أن يتوثق ضمن إطار خدمة الأدب العربي في هذا الزمان وإكراما له ولمواقفه الأدبية)[٥٨] .

إن الخلاصة من ذلك هو إن الرؤية النقدية قد أشارت إلى بصمة حسين مردان في هذا الميدان المهم والذي أشار إليه د . عبد الإله احمد بقوله (إن الأدب العراقي الحديث إنّما هو في حقيقته شعر وقصة لا شعر ولا نثر)[٥٩] بشكل واضح وعلى شقين الأول "وهو الأهم عندي " مقدرة حسين مردان على الابتكار من خلال وضع الشواخص والمثابات الدالّة التي أهلته على ان يكون منظراً لفن القصة وبشهادة النقاد إلى أهم الآراء التي لم يسبقه إليها احد فكانت له دون غيره ، وهذه

إن دلت فإنها تدل على إمكانية وعقلية غير اعتيادية وجدناه في مجال الشعر والمقالة والنقد وكذلك " القصة ونقدها " غير أنها وجدت في بيئة لم تمتلك مقومات الإبداع لتدل عليه هذا أولا ولكونها صادرة من شخص اسمه حسين مردان فهو مصاب بمرض " نقص المناعة " الاجتماعي والسياسي والثقافي فكانوا يضعون أصابعهم في أذانهم من صواعق حسين مردان .

اما الشق الثاني فكان مردان القاص الذي توزعت قصصه على الجوانب العاطفية والاجتماعية والجنسية والنفسية والسياسية .... الخ التي كان فيها قريبا من القارئ جدا فقد تبنى فيها مناهج ورؤى جديدة في التفكير والنشاط الإبداعي واستلهام المتغيرات الكبرى بكل تموجاتها وقد ساعده على ذلك كثرة اطلاعه على الكتب المترجمة والروايات العالمية أن ركز على طرح معاناة الشعب وقيم الحداثة والأفكار الجديدة لأنه كان ينهل من نبع التجربة الإنسانية وحب الجمال والانحياز إلى الحقيقة

نقد القصة :-

حسين مردان كتب القصة القصيرة ونقد القصة عند الآخرين وقد أظهر براعة نقدية في التقاط الافكار المهمة فيها وابداء الرأي الناضج فيها بوصفه فناً مهماً في الشارع الأدبي به حاجة الى تأسيس ضوابط يسير عليها القاص في كتابته وقد حظيت هذه الآراء فضلاً عن النقود التي قالها في القصة والرواية حظيت بالاهتمام الكبير من قبل النقاد ، اذ يقول عبد الجبار عباس في ذلك (لم يكتب حسين مردان القصة الشعرية الطويلة ولم يكتب المسرحية الشعرية ، ومهما انطوت القصة عنده على هاجس ذاتي فلابد ان تحتفظ بقسط من الموضوعية يغيب فيه المؤلف وراء السطور وذلك في الرواية الزم منه في القصة القصيرة ... لذا كان حسين يرى في نقده لرواية (صراخ في ليلٍ طويل)[٦٠] إنَّ من كُبر عيوب الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا محاولته وضع وجهه وراء كل جملة بل ان القاريء يلتقي بوجه المؤلف في كل كلمة ونبرة في قصته)[٦١] وكذلك يواصل عبد الجبار عباس كلامه (ومهما كانت الصورة القلمية ناضجة فلا بد من التمييز بينهما وبين القصة ذلك ما يؤكده مرة اخرى في نقده لمجموعة بسيم الذويب (آثام)[٦٢] فهي ... (اقرب الى الصورة القلمية منها الى القصة فالاسلوب المقالي الذي قدم فيه الكاتب ابطاله ينفي عنها صفة القصة اذ لم نجد اثراً للتكتيك الفني)[٦٣] .

اما في نقد حسين مردان لقصة (شاعر العصر) لعبد الرزاق الشيخ علي يعلقّ على ذلك عبد الجبار عباس قائلاً (ان الخطوط الاساسية في هذه المقالة النقدية المهمة تخ تصر ابرز الاهداف والمفاهيم القصصية لدى جيل قصصي باكمله سيما وانها جمعت بين شروط البناء القصصي الكلاسيكي وبين التأكيد على ضرورة الالتفات الجاد الى التحليل والتداعي اللذين اقترن بهما سعي عبد الملك نوري وزملائه وتلامذته الى التجديد داخل ذلك البناء)[٦٤]، اذ كان نقد حسين مردان

لهذه القصة بالغ الأهمية في تسليط الضوء على ملامح القصة القصيرة وشروطها كما عرفها هو وشاركه المجتهدون من قصاصي جيله في تثبيت دعائمها واشاعة مصطلحها ... بينما يطالعنا مهدي شاكر العبيدي برأي آخر بخصوص هذه القصة (قصة شاعر العصر) بقوله (انها تؤلف دليلاً حياً على السبق الثقافي بين ابناء جيله ممن كانت تستهويهم القراءات الشعرية والكتابات السياسية دون مجاوزتها الى الالمام بسمات الفنون الادبية الاخرى .وحق له ازاء هذا ان لايختلق عذراً للقاص في قلة الاطلاع وضآلة الخبرة بهذا الفن الجديد او جعل رأيه ب شأن ما يكتب مرهوناً بزمنه لينطلق منه الى الحث والتشجيع وتلمس القدرة الابداعية في اعماله المقبلة)[٦٥].

يضيف العبيدي قائلاً (ويتبدى المؤلف عبر هذه المقالة اقدر على التذوق وأثقب في نظرته النقدية الى النص الذي يتعامل معه بل دل على احاطة كافية بعناصر العمل القصصي وما يلزم به من الشروط والخصائص ... فإن القطع بتلك المسلمات والاحكام التي جهر بها الناقد ليست شيئاً هيناً في تاريخ النقد القصصي في العراق عبر تلك الفترة)[٦٦] وتطالعنا عبر هذا النقد عبارات شتى صرنا نعثر عليها في عموم مقالات وابحاث النقد القصصي في السنوات التالية من قبيل (إن اسلوب القصة سردي وجاف يشيع فيه الاضطراب و " قدم ابطاله في قوالب جامدة يعوزها التحليل النفسي العميق الذي يعتبر اليوم من اهم عناصر النجاح في القصة الحديثة "[٦٧] وفيها يدافع عن الوجودية ولايخفى ان هذا الدفاع يمثل اعادة صياغة لما نقلته الينا مترجمات الاداب الاجنبية التي غزت المكتبات ممثلة في البنايات الروائية والمسرحية والمباحث النظرية الصرفة)[٦٨] لكن كيل المدح لم يستمر مع مقالات حسين مردان النقدية القصصية بظهور بعض الملاحظات التي سجلها مهدي شاكر العبيدي ومن هذه المؤاخذات هي قوله (ان استهداف عبد الرزاق الشيخ علي للهجوم باسم النقد الادبي وعلى صفحات جريدة وطنية كان مما يطرب له الحاكمون واشياعهم حملة الاقلام المأجورة)[٦٩] .

وهو من الأخطاء غير المقصودة من قبيل (قتل الخطأ) الذي لايؤاخذ عليه مردان وإن جاء سهواً من حيث الزمن الذي ربما وفر حجة للسلطة ضد القاص عبد الرزاق الشيخ علي.

ان إهمية الموروث تأتي من كونه يمثل التحليل النفسي الذي لابد لكي ينجح القصاص فيه ان يكون عميقاً غائراً الى رواسب الذات ودهاليزها السرية وفي نقده الصحفي لطائفة من الروايات الشهيرة لايني حسين يؤكد اهمية هذا الامتياز الضخم حتى ليعد غيابه منقصة ومأخذاً وهذا ما نجده في نقده لرواية (الزوج الخالد)[٧٠] (لدستوفسكي) ورواية (بين القصرين)[٧١] لنجيب محفوظ ورواية (قصر الشوق)[٧٢] حيث يقول عبد الجبار عباس في ذلك (ان هذا الالتفات الى اهمية التحليل امتداد

طبيعي لما اعلنه في مطلع شبابه و بدء تجربته الشعرية من ثورة جنسية اخلاقية بهدف النبش عن حقيقة الحيوان الكامن في الاعماق ... إذ ان التحليل القصصي الناجح هو انجاز شعري ناجح)[٧٣]

ومن الانجازات التي تحسب لحسين مردان والتي شكّلت أساسا وطيداً هو ماذكره عبد الجبار عباس بقوله (إن التفاتة حسين مردان الرائدة والمهمة الى ضرورة التمييز بين (تداعي المعاني) هذا الأسلوب الصعب الجديد والمغري وبين (كثرة الانتقالات الفجائية) ذلك العيب البدائي القديم المستكره لم تكن مجرد ملاحظة نقدية بارعة بل كانت اساساً وطيداً لما كتبه حسين من اقاصيص سيكلوجية نهج فيها . ولكن باقتصاد جميل وحسّاسية صافية . هذا النهج القصصي الجديد)[٧٤] .

ان إمكانية حسين مردان في النقد القصصي تكشف عن ابداع فائق ومقدرة تلفت النظر لمشروعه النقدي من قبل النقاد والدارسين في الاشارة الى (سبقه النقدي) في هذا الاثر الادبي ، فالقراءة النقدية التي نجده ا في نقد حسين مردان القصصي تنفث الحياة في النص وتنشطه وتحميه من الجمود والاندثار فهي عبارة عن حوار مفتوح مع المقروء فهو فضلاً عن الموهبة كان ذا ثراء ثقافي من حيث القراءة والاطلاع الواسع مكنه من الاحاطة بالعناصر الفنية للقصة والحديث عن نماذجها البشرية في حا ل المعاناة والقلق من ضغوط الحياة ضمن رؤية تحليلية وفنية للواقع والنفس في آن واحد.

الهوامش

* بحث مستل من رسالة الماجستير (الأديب حسين مردان في الجهود النقدية الحديثة) عزيز لطيف ناهي ، جامعة القادسية ، كلية التربية ، إشراف د. عبد الله حبيب كاظم ، ٢٠١٢.

١. ينظر : فن القصة ، محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت : ٩
٢. ينظر : محاضرات في النثر العربي الحديث : ٦١
٣. رحلة مع القصة العراقية ، باسم عبد الحميد حمودي : ٩١
٤. م . ن : ٩١
٥. . نشأه القصة وتطورها في العراق من (١٩٠٨. ١٩٣٩) ، د . عبد الإله احمد ، مطبعة شفيق ، ١٩٦٩ : ٥١ .
٦. في النقد القصصي : ١٦٦
٧. شعراء من العراق : ٩٢
٨. في النقد القصصي : ١٦٦
٩. في النقد القصصي : ١٦٦
١٠. مرايا جديدة : ١٨٩

* رواية " خمسه أصوات " غائب طعمه فرمان ، رواية " شاعر العصر " عبد الرزاق الشيخ علي ، رواية " صيادون في شارع ضيق " جبرا ابراهيم جبرا ، فضلا عن بعض المسلسلات الخاصة بشخصيته .

١١. محاضرات في النثر العربي : ٦٦ .
١٢. شعراء من العراق : ٩٣ . ٩٤
١٣.في النقد القصصي : ١٦٧
١٤.م . ن : ١٦٨
١٥.م . ن : ١٦٧
١٦.فن كتابة المقالة في فرنسا ، فراتنسو بون ، جريده القادسية ، العدد " ٤٣٧٣ " ، سنه ١٩٩٣ م : ١٠، ورد ذكرها في (التناص في مقالات حسين مردان) : ٢٤ .
١٧.الأزهار تورق داخل الصاعقة : ٧٥
١٨.التناص في مقالات حسين مردان : ٢٥ . ٢٦
* نشرت في " الأزهار تورق داخل الصاعقة " بعنوان " دوران المراوح " :٧٥ .
١٩.في النقد القصصي : ١٨٣
٢٠.تيار الوعي في الرواية الحديثة ، روبرت همفري . ت . د . محمود الربيعي . دار المعارف . مصر . ١٩٧٤ م : ٢٢
٢١.الأزهار تورق داخل الصاعقة : ٦٣
٢٢.تيار الوعي في الرواية الحديثة : ٤٦
٢٣.من يفرك الصدأ : ٨٨
٢٤.البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، شجاع العاني ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد : ٢١٨ ، وينظر : التناص في مقالات حسين مردان : ٢٨ .
٢٥.التناص في مقالات حسين مردان : ٢٨
٢٦.في النقد القصصي : ١٨٥
٢٧.م . ن : ١٨٥
٢٨.من يفرك الصدأ : ٣٤٥
٢٩.في النقد القصصي : ١٨٦
٣٠.الأزهار تورق داخل الصاعقة : ٩٠ . ٩٨
٣١.شعراء من العراق : ٩٤
٣٢.في النقد القصصي : ١٨٧ .
٣٣.الأزهار تورق داخل الصاعقة : ٥٠
٣٤.في النقد القصصي : ١٨٧ . ١٨٨
٣٥.من يفرك الصدأ : ١٠٠
٣٦.شعراء من العراق : ٩٤
٣٧.في النقد القصصي : ١٨٩
٣٨.الأعمال النثرية الكاملة ، ج٢ : ١٠٩

٣٩.م . ن : ١٠٩ .

٤٠.في النقد القصصي : ١٩١ .

٤١.الأعمال النثرية الكاملة : ١٠٩ .

٤٢.شعراء من العراق : ٩٤ .

٤٣.في النقد القصصي : ١٩١ .

٤٤.شعراء من العراق : ٩٤ .

٤٥.في النقد القصصي : ١٩١ .

٤٦.جريده الشعب ، السنة ١٤ ، في ٢٠ حزيران ١٩٥٧ م ، نقلاً عن (في النقد القصصي) : ١٩٦ الهامش ٣٧ .

٤٧.في النقد القصصي : ١٩١ .

٤٨.في النقد القصصي : ١٩١

٤٩.الأزهار تورق داخل الصاعقة : ١٠٠

٥٠.في النقد القصصي : ١٨٧.

٥١.حسين مردان وحواره مع مثاله الشعري ، ياسين النصير : ١٠٣

٥٢.في النقد القصصي : ١٩٣

٥٣.الأعمال النثرية الكاملة ، ج٢ : ٢٥٣

٥٤.في النقد القصصي : ١٩٤

٥٥.م ، ن :١٩٤

٥٦.م . ن : ١٩٤ .

٥٧.شعراء من العراق : ٩٤ وينظر الهامش

٥٨.م ، ن : ٩٤

٥٩.نشأه القصة وتطورها في العراق " ١٩٠٨ . ١٩٣٩م " : ١

٦٠.الاعمال الكاملة النثرية ، ج٢ : ٩٢ .

٦١.في النقد القصصي ، عبد الجبار عباس : ١٦٥.

٦٢.الاعمال الكاملة النثرية ، ج٢ : ٢٢٥ .

٦٣.م . ن : ٢٢٥ .

٦٤.في النقد القصصي : ١٦٩ .

٦٥.دفاتر ثقافية : ١٢٩ .

٦٦.م .ن : ١٢٩ .

٦٧.مقالات في النقد الادبي : ٥١ .

٦٨.دفاتر ثقافية : ١٣١ .

٦٩. م ، ن : ١٣٢ .

٧٠.الاعمال الكاملة النثرية ، ج٢ : ١٧٠ .

٧١.الاخبار ، ٢٧، نيسان ، سنة ١٩٥٧ ، ورد ذكرها في النقد القصصي : ١٩٥ .

٧٢.الاخبار ، ٣ حزيران ، سنة ١٩٥٧ ، ورد ذكرها في النقد لقصصي : ١٩٥ .

٧٣.في النقد القصصي : ١٧١.

٧٤.في النقد القصصي : ١٨٢

مظان البحث

١. الأخبار ، ٢٧ نيسان ، ١٩٧٥ ،

٢. الأخبار ، ٣حزيران ، ١٩٥٧ .

٣. الأعمال النثرية الكاملة ، حسين مردان ، ج ٢ ، جمعها د . عادل كتاب نصيف العزاوي ، دار الشؤون الثقافية ، ط١ ، بغداد ، ٢٠١٠ .

٤. الأزهار تورق داخل الصاعقة ، حسين مردان ، بغداد ، دار الجماهير ، مديرية الثقافة العامة ، ١٩٧٢ .

٥. البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، شجاع مسلم العاني ، ط ١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .

٦. جريدة الشعب ، السنة ١٤ ، ٢٠/ حزيران ، ١٩٥٧ ، نقلاً عن في النقد القصصي .

٧. التناص في مقالات حسين مردان ، رسالة ماجستير ، عواطف محمد حسن الحسناوي ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد، ٢٠٠٠ .

٨. تيار الوعي في الرواية الحديثة ، روبرت همفري ، ت . د . محمود الربيعي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٤ .

٩. دفاتر ثقافية ، د. مهدي شاكر العبيدي ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ساعدت وزارة التربية ، ١٩٧٥ .

١٠.رحلة مع القصة العراقية ، باسم عبد الحميد حمودي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ .

١١. شعراء من العراق ، جمال مصطفى مردان ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٧ .

١٢.فن القصة ، محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٤ ، د . ت .

١٣.فن كتابة المقالة في فرنسا ، فراتنسو بون ، جريدة القادسية ، ع٤٣٧٣ ، س١٩٩٣ .

١٤.في النقد القصصي ، عبد الجبار عباس ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠ ، دار الرشيد للنشر .

١٥.محاضرات في النثر العربي الحديث ، د حاتم الساعدي ، مؤسسة المعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٩ .

١٦.مرايا جديدة ، عبد الجبار عباس ، دار الرشيد للنشر ، الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨١ .

١٧.من يفرك الصدأ ؟ أو حسين مردان في مقالاته ، د . علي جواد الطاهر ، دار الشؤون الثقافية ، ط ١ ، ١٩٨٨ .

١٨.نشأة القصة وتطورها في العراق من (١٩٠٨-١٩٣٩) ، د.عبد الآله احمد ، مطبعة شفيق ، ١٩٦٩.